بريد الجمعة

ثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجُمعَة ■ ٢ أغسطس ٢٠٠٢ ■

يكتبه: عبدالوهاب مطاوع

الوجه العبوس

ترددت سنوات طويلة في أن أكتب إليك إلى أن قرأت رسالة «الغريزة الأساسية» للزوج الذي يشكو من أن زوجته تتميز بالحب والعطف والحنان، لكنها ترفض نهائياً العلاقة الحميمية بينهما وتنفر منها، مما يدفعه للتفكير في الزواج من أخرى، فلقد فجرت هذه الرسالة ما بداخلي وما عانيت منه سنوات طويلة ومريرة.

فلقد نشأت يتيما منذ كنت طفلا صغيرا، ومات أبي وعمري بضعة شهور وبعد سنوات قليلة رحلت أمي هي الأخرى عن الحياة، فاحتضنني عمي وقام بتنشئتي وتعليمي وكان حنونا وعطوفا علي إلى أقصى درجة. وفي بداية الصبا أعلن الأهل أنني «موعود» بالزواج من ابنة عمي منذ الطفولة، ولم أخذ الأمر مأخذ الجد. ومضت الحياة إلى أن بلغت سن الشباب وأحببت فتاة أخرى حبا كبيرا وذهبت لزيارة أهلها وطلب يدها منهم، فرفضوا إلا أن يحضر عمي معي باعتباره ولي أمري، فتوجهت إلى عمي وصارحته بما أريد ففوجئت بصمته، وفهمت من ذلك أنه يرفض هذا الزواج ويتوقع مني أن أتقدم لابنته أو أنه يعتبرنا مخطوبين بالفعل ولم أكن أملك مواجهة عمي برفضي لذلك، لكني كنت أعرف جيداً ومنذ سنوات أن ابنته لا تنظر إليّ نظرة فتاة إلى خطيبها وإنما كأخ لها فاعتمدت على أن الرفض سوف يجيء من ناحيتها فيعفيني من أن أكون جاحدا لفضل أبيها علي.. ولقد حاولت هي بالفعل ذلك مع والدها، بكل الوسائل فلم تنجح، وتمت الخطبة بيننا وهي كارهة.. وأنا صامت، ثم عقد القران وظلت خطيبتي سبع سنوات بعد ذلك تسوف وترفض الزواج مني وتقدم لأبيها المبررات المختلفة لذلك وهو يصر على ألا تتزوج سواي، إلا أن فشلت كل محاولاتها وحددنا موعداً للزفاف وفي ليلة الحنة رفضت خطيبتي أي مظهر من مظاهر الفرح في البيت. حتى الزينة الكهربائية التي تعلق على المنازل رفضتها بإصرار وما أن انتهى الحفل المحدود ليلة الزفاف وأغلق علينا مسكننا حتى انفجرت زوجتي في البكاء، وظلت تبكي بكاء متصلا لمدة ٥ ساعات كاملة حتى بزغ النهار وفشلت كل محاولاتي للتخفيف عنها وبعد هذه الليلة الكئيبة امضينا ٤٥ يوماً وأنا لاأستطيع الاقتراب منها، فإذا حاولت ذلك انفجرت في البكاء أو راحت تتوسل إليّ أن ادعها لشأنها فلم أجد في النهاية وسيلة سوى أن أضع لها قرصا منوما في كوب من العصير وبهذه الطريقة فقط اصبحت زوجا فعليا لها وحين افاقت وأدركت ما حدث انهارت في بكاء شديد وطويل إلى ما لا نهاية.

وبعد ذلك كنت كلما حاولت الاقتراب منها لاأجد منها سوى البكاء والتوسل.. وإذا حاولت ملاطفتها أو حتى لمسها بكت وتوسلت حتى تحولت حياتي إلى جحيم.

وبعد عذاب طويل ومناقشات عديدة فكرت في إرضاء قريبها وليس لي أن يتم ما أريد من خلال أخذها للنوم، ووافقت إذا مضطراً.. وبهذه الطريقة فقط أنجبنا أطفالنا الذين يحسدوننا عليهم الآخرون ورغما عنها لأنها حاولت دائماً في كل حمل إجهاض نفسها وفشلت وخلال هذه السنوات كنت دائم السفر، وفي كل مرة أرجع فيها إلى زوجتي يكون أول سؤال توجهه إليّ هو: متى ستسافر؟ وتمضي بعد ذلك معظم أيام اجازتي في بيت والدها.

وبالرغم من أنني كنت أتعمد إخفاء موعد قدومي من السفر، فلست أستطيع أن أصف لك وجه زوجتي حين تراني قادماً إلى البيت من رحلتي فالضحكة تذبل على الفور في وجهها وتموت وينحول إلى الوجه الذي لم أعرف سواه منذ تزوجتها وهو الوجه العبوس، وهي التي يحبها الكل وتحبهم ما عداي وتضحك مع الجميع، لا تواجهني إلا بهذا الوجه العبوس على الدوام، ولم أشعر معها ولو للحظة واحدة أن بداخلها مشاعر أنثى من عاطفة أو حب أو غيرة أو أي إحساس من أي نوع ما عدا النفور، ولم يتغير ذلك لحظة واحدة طوال خمسة عشر عاما هي عمر زواجنا الكئيب حتى الآن وحتى ضاق صدري بها وأصبحت اتمنى لها الموت في كل لحظة لأنه لانشيء سيخلصني منها سواه، فلقد يئست من كل أمل في اجتذابها إلى بعد أن حاولت بكل الحيل والوسائل ذلك دون جدوى.. كما أنني لا استطيع التخلص منها بالطلاق لأني حرمت من الأب والأم ولا أريد لأولادي حياة كحياتي.

فإذا كان كاتب رسالة الغريزة الأساسية.. يجد لدى زوجته الحب والحنان والعطف لكنه لا يجد فقط لديها الميل للغريزة فإنني أحيا مع إنسانة بلا غريزة ولا حب ولا عطف ولا حنان وليس هناك في العالم كله شيء يثير مشاعرها، فهي إنسانة في الشكل العام فقط وليس لديها شيء من مشاعر الإنسان وأحاسيسه وغرائزه وليست أتجنى عليها في ذلك والله شهيد على ما أقول. وأرجو أن اجد لديك الحل الذي لا استطيع التفكير فيه

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

أخطأ هل منكما في حق نفسه وفي حق الآخر خطأ بالغاً بقبوله هذا الزواج على كره منه.. وإن كان خطؤك أكبر ومسئوليتك عنه أعظم.. ذلك لأنك رجل وكنت تملك أن تعتذر لعمك برقة عن الارتباط بابنته وأن تؤكد له أن اعتذارك هذا لا علاقة له بجحود فضله عليك أو إنكارك لما قدم لك من يد حين تولى تنشئتك بعد أبويك، وإنما فقط لأنك وفاء له وعرفاناً بجميله تخشى ألا تسعد ابنته بحياتها معك، لأنك تعلم عن يقين أنها لا ترغبك كزوج ولأنك من جانبك لم تحمل لها سوى مشاعر الأخ لأخته.. لكنك لم تفعل ذلك والذنب الصمت املاً في أن يجيء الرفض من جانبها.. ولم تقصر هي في إبداء رفضها لك ولا في محاولة إقناع أبيها بالعدول عن هذا الارتباط وماطلت سبع سنوات طوال في تحديد موعد الزفاف، ثم استسلمت للأمر الواقع فكيف لم يقنع كل ذلك والدها بأن ابنته لا ترغبك ولن تسعد بحياتها معك؟

وكيف لم تنجح تلك السنوات الطوال في خلق أي شيء من القبول النفسي لك لدى زوجتك مادامت قد استسلمت للأمر الواقع وعجزت عن مواصلة الرفض إلى النهاية.

لقد تواعمت أنت مع حياتك.. وتنازلت عن اعتراضك الصامت عليها بعد أن تحول زواجكما إلى أمر واقع.. فلماذا لم تبذل هي أي جهد لقبول حياتها الجديدة والتواؤم معها؟

وكيف لم تنجح تلك السنوات الطوال في خلق أي شيء من القبول النفسي لك لدى زوجتك مادامت قد استسلمت للأمر الواقع وعجزت عن مواصلة الرفض إلى النهاية.

لقد تواعمت أنت مع حياتك.. وتنازلت عن اعتراضك الصامت عليها بعد أن تحول زواجكما إلى أمر واقع.. فلماذا لم تبذل هي أي جهد لقبول حياتها الجديدة والتواؤم معها؟

لقد كان العدل بطالبها.. مادامت قد القت بالراية البيضاء أمام إرادة أبيها وأتمت زواجها منك.. أن تقبل بحياتها الزوجية.. أو أن تستجمع إرادتها وتسعى إلى التخلص منها.. فلماذا اكتفت بالرفض الداخلي لك وتحجرت على هذا الموقف وحده طوال تلك السنين؟

إنني أتصور أن بعض أسباب رفضها لك هو احساسها بأنها قد أرغمت عليك فتفاعل الإحساس بالقهر في اعماقها وتحول إلى رفض مطلق لك تخالطه رغبة كامنة في عقلها الباطن في الإساءة إليك أو الانتقام منك باعتبارك رمزاً لقهر أبيها لإرادتها وإرغامها على الارتباط بك، ولاشك في أنها مخطئة في ذلك بكل تأكيد، لأنك «زميل» لها في هذا القهر وليست رمزاً له ولا شريكاً فيه وليس من العدل أن تقوم بتحويل مشاعر الغضب التي تملكتها تجاه أبيها، من شخص الأب الذي تعجز للاعتبارات الدينية والأخلاقية المعروفة عن أن تجاهر بمشاعرها السلبية تجاهه.. إلى شخصك أنت لأنها لا تشعر بالحرج الديني من مجاهرتك بالرفض والعداء، على أية حال فإنني لا أرى أي أمل في تغيير موقفها منك الآن إلا إذا كان لديها من رجاحة العقل والإنصاف ما يدفعها لمراجعة نفسها.. والإقرار بأنك ضحية مثلها وليست جانيا عليها، وأنك تستحق التعاطف معك وليس الانتقام من الأب في صورتك، فتعتبر زواجها منك بعد كل هذه السنوات زواجا إراديا لها وليس ارتباطا قهريا فرض عليها وتعطي نفسها لأول مرة الفرصة لاكتشاف مزاياك والتفكير فيك كزوج وليس كسجان ينفذ فيها حكما أصدره والدها، فلربما يؤدي ذلك إلى بدء صفحة جديدة معك، فإن لم تفعل هي ذلك ولم ترغب أنت في الانفصال عنها للأسباب التي أشرت إليها.. فإنك تستطيع أن تستأنفها في الزواج من غيرها لأنك لا تستطيع احتمال الحياة إلى ما لا نهاية مع زوجة تموت الابتسامة في وجهها على الفور حين تراك عائداً إليها من السفر.. وتبكي بالساعات الطوال إذا حاولت الاقتراب منها ولا تستجيب لأية محاولة من جانبك لاجتذابك إليها.. ولا ينالها زوجها إلا وهي غائبة عن الوعي بتأثير الأقراص المنومة، وليس من حقها أن ترفض زواجك من أخرى في مثل هذه الحالة.. إلا إذا تحركت فيها بعض مشاعر الأنثى وقررت أن تعيد النظر في علاقتها بك.

وليس من المستبعد، إذا كانت حقا كما تصفها من حيث جمود المشاعر العاطفية والحسية والإنسانية تماما تجاهك، الا تشعر بأنها قد خسرت شيئاً كثيراً إذا أنت تزوجت من غيرها.